



## الإسهام العلمي الأدبي للإمام أبي الوليد الباجي

### The literary scientific contribution of Imam Abi Al –Walid Al-Baji

صبان حبيب<sup>1</sup>، عمر بوخاري<sup>2</sup>

1- جامعة ابن خلدون – تيارت – sebbanehabib@yahoo.fr

2- جامعة ابن خلدون – تيارت – aswarab1954@gmail.com

تاريخ القبول: 2021/04/15

تاريخ الاستلام: 2020/07/15

#### ملخص-

عرفت بلاد الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ازدهار وتطورا ثقافيا في مختلف مجالات الحياة الفكرية، في خضم التمزق السياسي الذي كان سائدا بمختلف أرجاء البلاد نتيجة الصراعات الطائفية و القبيلية، غير أن هذا لم يمنع من ظهور علماء وأدباء كان لهم إسهام علمي في مختلف أنحاء البلاد، كالإمام والفقير أبو الوليد الباجي الذي لعب دورا مهما في إثراء الحياة العلمية خاصة في مجالاتها الأدبية وفروعها، كنظمه للشعر وكتابته لرسائل نثرية ممزوجة بمختلف أساليب اللغة من خطاب و نداء واستفهام وتعجب، إضافة إلى مقتطفات من مناظرات فقهية ذات استدلال نحوي وصرفي مقترنة بفصول من علم الجدل، وجل هذا راجع لطبيعة تكوينه العلمي و تحصيله عن علماء الأندلس وبلاد المشرق بعد عناء وجهد بليغ أفناه في كسبه، وكل هذا جعل منه العالم الذي ذاع صيته في البلاد الإسلامية.

#### كلمات مفتاحية-

الإسهام الأدبي، الأدب، الشعر، النثر، النحو، الصرف، المناظرة .

## Abstract-

During The Fifth Century AH, Although Andalusia Was Midst Of A Political Rupture Spreading To The Corners Of The Country As A Result Of Sectarian And Tribal Conflicts, However It Experienced Prosperity And An Immense Cultural Development In Various Areas Of Scholastic Landscape. This Strongly Is Evident With The Emergence Of Scholars And Writers Who Had A Vast Scientific Contribution Throughout The Country, And The Imam And The Jurist Abu Al-Walid Al-Baji, Is One Of Those, Who Played An Important Role In Enriching The Scientific Life, Especially In Literatureas He Wrote In Both Poetry And Prose At The Higher Level Of Literary Quality. In Addition To His Grammatical And Morphological Inferences Within The Doctrinal Debates He Was Involved In. Most Of This Is Due To The Nature Of His Rigorous Scientific Training In Andalusia And The Islamic Orient, Through Which He Acquired His Knowledge And Skills, Giving Him Thus A Daunting Bright Reputation In The Muslim Lands.

## Keywords-

Literary Contribution; Literature; Poetry; Prose; Grammar; Debate.

## مقدمة-

شهدت بلاد الأندلس خلال القرن الخامس الهجري نهضة علمية وفكرية في مختلف مجالات الحياة الثقافية كاللغة وفروعها والآداب ودواوينها، وعلى الرغم من التمزق السياسي الذي كان سائداً بها نتيجة الحروب والصراعات التي كانت دائرة بين أمرائها من ملوك الطوائف، فإن ذلك لم يمنع من ازدهارها وتطورها نتيجة ظهور علماء ومفكرين، كانت لهم مساع وجهود مشكورة في النهوض بميادين الحياة الأدبية كالشعر والنثر والصرف والبلاغة والنحو، ولعل أبرز هؤلاء الإمام والعالم المالكي أبو الوليد الباجي على الرغم من اشتهاره في علوم الجدل والفقه وأصوله، إلا أن حياته العلمية تدل على نشاطه التعليمي في مختلف أفاق اللغة العربية وآدابها، استناداً لإيراد المصادر التاريخية إشارات واضحة عن ذلك.

غير أن الدراسات التاريخية حول الموضوع تكاد تنعدم باستثناء بعضها التي أوجزت مقتطفات حول ذلك، وبعد تتبعي لأبرز حيثياتها حول الموضوع اهتديت لدراسة أدبية في شكل مقال بعنوان: الإمام أبو الوليد الباجي أديبا وشاعر للدكتور بلاعة العمري صادر عن مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، يشير فيها الباحث لحياته العلمية باختصار مع ذكر لمؤلفاته، مع ذكر لجل أشعاره، ومقتطفات نثرية من رسائله من محتوى أمهات مصادرهما، كما أن هذه الدراسة لم تسلط الضوء حول نشاطه العلمي وأثار تحصيله الأدبي سواء ببلاد المشرق أو الأندلس.

كما لاحظنا أن جل الدراسات حول هذه الشخصية اهتمت بإشارات حول حياته العلمية خاصة في الجوانب الشرعية، إضافة إلى إجازات مختصرة عن بعض مناظراته وما تعلق بها من فقه وأصوله، تعدتها إلى إشارات حول جهوده السياسية والإصلاحية للأوضاع ببلاد الأندلس، متناسية إسهامه العلمي في ميادين الأدب، متحاشية الكلام عن دوره في ذلك.

ولعل هذا التحاشي من قبل الباحثين يمكن حصره في شح المادة العلمية حول ذلك، وذلك ما نشاهده من خلال أثاره الأدبية، والتي غالبا ما كانت تتكرر في جل المصادر التاريخية، فيجد الباحث في عموم طياتها أنها متناقلة لنظم أشعاره في طياتها.

ولهذا ارتأيت أن أسلط الضوء على مجمل مظاهر نشاطه العلمي الأدبي في هذا الجانب، والذي طالما شكل موروثا ثقافيا لا يستهان به مكن من اضاء صبغة العالم الأديب النحوي على فقيهننا، ومن هنا نطرح بعض التساؤلات: عن أبرز مظاهر وأثار الإسهامات العلمية للإمام أبي الوليد الباجي في مجالات الحياة الأدبية؟ ولغرض انجاح هذه الدراسة، انتهجت المنهج الوصفي التاريخي، لغرض تتبع الأثر العلمي الأدبي لأبو الوليد ودوره في إثراء الحياة الفكرية خاصة في المجال .

## أولاً: من هو الإمام أبو الوليد؟

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي الباجي ت474هـ، ولد سنة 403هـ أصله من بطليوس وانتقل جده منها إلى باجة قرب إشبيلية فنسب إليها، واستقر أبو الوليد بشرق الأندلس وأخذ بها عن علمائها، ثم رحل إلى بلاد المشرق سنة 426هـ لغرض طلب العلم، فأقام بها مدة ثلاثة عشر سنة مواظباً وساهراً على تحصيله، متنقلاً بين حواضره ملازماً لفقهاءه، يسمع منهم الحديث والفقهاء والكلام وغير ذلك من أصناف العلوم، حتى أضحى أحد أبرز علماء عصره شهرة في تلك العلوم وبلغ صيته مشارق الأرض ومغاربها وقصده الطلاب للأخذ عنه والسماع منه، ثم رجع لأرض الأندلس فاشتهر ذكره ورأس العلم والعلماء بها (عياض، 1998، 347 - ابن خلكان، 1968، 408 - ابن عساكر، 1995، 244).

### - حياته العلمية:

إن المتتبع للمراحل التعليمية للإمام الباجي منذ البدايات الأولى من خلال المصادر التاريخية يمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

#### - المرحلة الأولى: 403هـ، 426هـ:

وتميزت بتلقيه العلم منذ صغره داخل أحضان أسرته، ثم انتقل بعدها إلى الأخذ عن جماعة من العلماء والفقهاء فروى عنهم، أمثال القاضي يونس بن عبد الله وأبي محمد مكي وغيرهم (ابن الأبار، 1995، 230 - ابن بشكوال، 1989، 318).

#### - المرحلة الثانية: 426هـ، 438هـ:

وكانت هذه الفترة بعد رحلته إلى المشرق التي قضى بها مدة ثلاثة عشر سنة، أين عكف خلالها على طلب العلم و ذلك بملازمة عدد من الفقهاء والعلماء بالمشرق كابي ذرالهروي، وأبا عبد الله الصوري وأبي جعفر السمناني وأبا عبد الله الصيمري، فكتسب قاعدة علمية متينة أسهمت في إثرائه للحياة العلمية وما ارتبط بجوانبها الفكرية الدينية والأدبية (ابن عساكر، 225).

### - المرحلة الثالثة: 439هـ 474هـ:

وهي مرحلة ما بعد العودة من الرحلة فعبر عنها ابن العربي قائلاً: " وهذا أبو الوليد الباجي رحل وأبعد، وجلب علما جما" (ابن العربي، 2017، 420)، ومن خلال المصادر يبدو لهذه الفترة تداخل مع المرحلة التي سبقتها وتميزت بظهور إنتاجه العلمي، وكثرة مصنفاته في مختلف ميادين العلوم، وتجلي آثاره الفكرية المتمثلة في مجالسته للعلماء والفقهاء ومناظرته إياهم في مسائل الفقه وأصوله، وهو ما نتج عنه اشتهاه سمعته الأمر الذي جعل العلماء وطلاب العلم يقصدون مجالسه لأخذ العلم عنه والسماع منه أمثال: أبو بكر الخطيب، وأبو بكر الطرطوشي، وأبو داود سليمان بن نجاح مولى المؤيد بالله، حيث قيل أنه كان يحضر مجالسه حوالي ثلاثة آلاف رجل للسماع منه، وقيل أربعون ألف رجل. (ابن بشكوال، 319 - الضبي، 1989، 386)

### - صفاته

أوردت المصادر بعض الصفات التي امتاز بها العالم الفقيه أبو الوليد كالفصاحة في اللغة وإتقان المعارف والحنق في التأويل والمعاني، والوقار والهيبة ورفعة القدر والعلم الجليل و لعل ابرز سماته التواضع، ودليل ذلك امتهانه مهناً بسيطة كضرب ورق الذهب للغزل والإنزال وعقد الوثائق، وحدث بعض أصحابه أنه كان يخرج إذا حضر له القراء وفي يده أثر المطرقة وصدا العمل (ابن ما كولا، دت - 468 - ابن بشكوال، 348)، وهي في مجملها صفات مستمدة من الشريعة الإسلامية كالقرآن والسنة، وذلك ما أشار إليه أبو بكر ابن العربي حول جواب الإمام الباجي للمؤتمن بن هود بقراءته لأداب النفس لمحمد بن عبد الله. (ابن العربي، 1974، 108)

وجل ما سبق نلتمسه بشكل واضح في نصيحته الولدية، ناصحا ومخاطبا إياهم قائلاً: " لو مني أن أقدم إليكما وصيتي وأظهر إليكما نصحي " فتسنى إليه نصحهما بجملة من النصائح التي اتسم بها واكتسبها، وكان لها أثر في حياته

كالنصح والاجتهاد بسلوك طريق العلم والتعب في تحصيله، والصدق و أداء الأمانة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدل والابتعاد عن الآفات الاجتماعية الخطيرة التي حظرها الشرع كالخمر، والربا، والتنجيم والغناء والظلم والبخل، وأيضا اتصف بصفة الطاعة فدعي أبناءه إلى طاعة الوالدين، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، والتحلي باحترام الصغير والكبير، واحترام الجار، والمناصحة، والتعاطف، وصلة الرحم، والكرم، الصبر وشكر النعم، والى غير ذلك من الصفات. (الباجي، 1999، 9 - 30)

كما تسنى لأبي الوليد اكتساب بعض الآداب التي كانت نتاج ممارسته اليومية لطلب العلم، والمتمثلة في ضرورة الصبر على تأديب المعلم والاحتساب للأهل العلم وتوقير أقوالهم والنظر فيها والتحلي بالآداب ازاءها، لما لهم السبق والفضل فيه، ولعل ذلك ما نستشفه من خلال نهر واغلاظ أبو إسحاق الشيرازي للباجي وأصحابه عقب كثر استوقفاه لمعاودة الدرس، (ابن الازرق، 1999، 830) ولنا حادثة أخرى بين أبو الوليد وشيخه أبو جعفر السمناني، مفادها رفض وتصويب الأخير لرأي الباجي على استحسانه لكلام السمناني الذي جرى بعد كلام الخطيب البغدادي مطالبا اياه بتقدير أهل العلم لما لهم من أفضلية وسمو القدر في ذلك. (ابن الازرق، 900)

### ثانياً - التكوين العلمي الأدبي لأبي الوليد.

ترعرع الفقيه أبو الوليد، في أسرة وبيت علم ونباهة، فأبوه من العلماء الصلحاء العباد ومن المجالسين للفقهاء والملازمين لهم، وأمه فقيهة وجده لإمه محمد بن موهب القبري ت 406هـ فقيه وعالم، وخاله أبو شاعر عبد الواحد فقيه ومحدث واخوته صالحون ومجاهدون فلا غرابة أن يتلقى تعليمه الأولي عليهم، ثم انتقل مع عائلته إلى باجة وسكنوا قرطبة واستقر أبو الوليد بشرق الأندلس وأخذ عن جملة من الفقهاء والعلماء كابن الرحوي، ومحمد بن إسماعيل بن فورثش وغيرهم. (ابن بدران، 1349هـ، 249 - ابن مخلوف، 2003، 165، -الذهبي، 1347هـ، 1178،

وكانت الحياة العلمية للباجي في المراحل الأولى من طفولته قائمة مبدئياً على الإقدام والاهتمام بمجالات الأدب كالشعر والنثر، مع ميوله إلى علوم الدين كونه لازم جملة من علمائه بالأندلس "

غير أن اشتها أبو الوليد بالعلوم الأدبية وشغفه بها لأول أمره، راجع لطبيعة تلقيه إياها مبدئياً على مستوى البيت العائلي، ثم على شيوخ وعلماء عصره ممن له باع في مجالاتها كالشعر والنحو، والإعراب، فخاله أبو شاعر محدث وأديب وخطيب شاعر. (عياض، 358، ابن بشكوال، 560)

وشيخه ابن الصفار، كان مقدما في علم اللسان والآداب، وحسن البلاغة، كما نجد له أشعارا في الرقائق والزهد (الحميدي، 1966، 305 - عياض، 305) أما أبو محمد مكي فهو الآخر من أهل علوم القرآن والعربية. (ابن خلكان ولا شك أن تلقيه علمه على هؤلاء العلماء جعل لمجمل تحصيله الأولى تأثير على نمط حياته التعليمية، وجعل منه العالم المشهور في مختلف ميادين الحياة الأدبية.

فأضحى أبو الوليد من العلماء المشهورين في الحواضر الإسلامية، كحلب ومصر والقيروان فقد ذاع خبره بهذه المدن ووصل صيته إلى بلاد الشام والعراق، فشد الرحال إلى أفاقها فعبر ابن بسام في هذا قائلا: "فما حل بلدا إلا وجده ملائنا بذكره، نشوان من قهوتي نظمه ونثره". (ابن بسام، 600)

اتفقت جل المصادر على أن غرض الباجي من هذه الرحلة هو سعيه الحثيث في طلب العلم، فكان دائم التنقل بين مدن المشرق لدراسة وسماع الحديث وكتابه وأخذ العلم وفنونه والفقه وأصوله والحديث ورجاله والآداب ومجالاته عن جملة من علمائها. (ابن خاقان، 599)

ففي المشرق تواصل تكوينه العلمي بملازمة ومجالسته لكبار العلماء والفقهاء مقبلا على دراسة العلوم الدينية وما ارتبط بها من علم الكلام وطرقه، فأكسبه ذلك أسسا علمية متينة خاصة في العلوم الشرعية، غير أن تحصيله لم يقتصر عن هذه الأخيرة، بل تعداه إلى مجالات اللغة العربية كالآداب والنحو

والصرف، أين خاض العديد من المناظرات العلمية المتعلقة بمسائل فقهية مختلفة وطرق الاستدلال لها بوجوه العربية، ففي مدينة بغداد خاض مناظرة فقهية مع شيخه أبي القاسم ابن برهان حول مسألة الطهارة للرجلين هل فرضها المسح أو الغسل؟ فقد أورد الباجي أنه أخذ ما تعلق بهذه المسألة من وجوه العربية، وأفردها بتأليف جزأين عند مفاوضته للعكبري.

وهي نفس المسألة التي ناظره فيها الشيعة بحلب عندما ورد إليها سنة 437هـ فتغلب عليهم، وحصر أفكارهم وأدلتهم ودحض كلامهم في معالجة المسائل الفقهية بالكتاب، ونظرا لعدم اقتناعهم كونها مسألة متعلقة بالنحو، فكان لهم أبي الوليد بالمرصاد ناقضا كلامهم من جهة العربية، كونه سبق أن أخذ عن علماء وحداق اللغة ببغداد ما تعلق بوجوه العربية، وصنف فيما يخص المسألة مقارنا ذلك بفصول أحكام الجدل على سبيل الاستشهاد على اعتراضاتهم فعبّر بقصد ما ألفه بخصوص ذلك قائلا: " فأوردت من ذلك - المسألة ببغداد - ما تعلق باعتراضه وقرنت ذلك بفصول من أحكام الجدل، اقتضاها اعتراضه، فحيرته، ولم يكن في هذا الباب يد " إضافة إلى مناظرة في علم الأصول حول الفناء أهو معنى أم غير معني؟ فأظهر تفوقه فيها وجرت مجرى الأولى في طرق الإستدلال والاعتراض من وجوه العربية. (ابن الأزرق، 551)

وعلى إثر متانة وصلابة تكوينه العلمي أصبح الإمام أبو الوليد من العلماء الحدائق في علم الفقه و أصوله، وهذا ما فسح له المجال أن يلزمه طلاب العلم وحتى مشايخه في الارتياح له والأخذ عنه كابن ماکولا الذي كان يحضر مجالسه وقرأ عليه كتاب التميز عن أبي ذر الهروي فقد أشار معبرا لمكانته العلمية قائلا: " صار كثير من العلماء يسمعون منه، ويرتاحون إلى الأخذ عنه وتيقن أهل المشرق أن بالأندلس رجالا. " (ابن ماکولا، 468، ياقوت الحموي، 1388، 1993)

وذكر الذهبي عن ذلك أنه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر ابن عبد البر وأبو بكر الخطيب، وهما أسن منه وأكبر". (الذهبي، 1179)

وعلى إثر عزيمة الإمام أبي الوليد واهتمامه بطلب العلم ورسوخه فيه، أثنى عليه جملة من الفقهاء والعلماء كابن خاقان الذي قال عنه: "ورحل إلى المشرق فعكف على الطلب ساهرا، وقطف من العلم أزهارا، وتفنن في اقتنائه " . (ابن خاقان، 599)

#### - مكانته العلمية الأدبية شعرا ونثرا.

أشارت بعض المصادر في طيتها إلى المكانة العلمية الأدبية للإمام الباجي مثنية على بروزه في ميادين الشعر ونظمه والنثر وأساليبه، فقال فيه ابن مأكولا، " فقيه أديب شاعر"، وقال الحميدي: " ورجع إلى الأندلس، وتصدر ورأس، وكان أديبا شاعرا" وقال عنه ابن خاقان: " كان له نظم يوقفه على ذاته ولا يصرفه في رفث القول وبذاته " و قال عياض: وكان مطبوع القول، شغفا بالشعر" (ابن خاقان، 600 - عياض، 351 - ابن مأكولا، 468)

نال مجال الأدب اهتماما وحظا وافرا من قبل العالم أبي الوليد فأشارت المصادر أنه من الأديباء الشعراء، مطبوع القول شغوفا بالشعر، وقد قصد بأشعاره في رحلته إلى خارج الأندلس، حتى أنه ترك مجموعة من الأشعار كموروث ثقافي أدبي جمعها ابنه بعد وفاته.

(عياض، 349، المقري، 67، ابن فرحون، 1996، 198)

كما برع أبو الوليد في مجال النثر الأدبي فأورد ابن بسام قائلا عن ذلك " نشأ أبو الوليد هذا وهمته في العلم تأخذ بأعنان السماء، ومكانه من النثر والنظم يسامي مناط الجوزاء، وبدا في الأدب فبرز في ميادينه واستظهر أكثر دواوينه، وحمل لواء منثورته و موزونه وجعل الشعر بضاعته، فوصل له الأسباب بالأسباب، ونال به مآكل القحم الرغاب، حتى جن الإحسان بذكره، وغنى الزمان بغرائب شعره". (ابن بسام، 600)

### - أثر تكوينه العلمي على الحياة الأدبية:

لاشك أن التكوين العلمي للإمام الباجي في مجالات الحياة الأدبية، كان له أثرٌ على الحياة الفكرية الثقافية وذلك بإثرائها بجملته من الأشعار من نظمه، والتي طالما عبرت عن سعة فكره وحوالغ خاطره .

إضافة إلى وضعه بعض المصنفات النثرية في شكل رسائل علمية ذات طابع أدبي ممزوج بفتون جدلية موجه لأغراض توجيهية من نصح وإرشاد ووعظ وهداية إلى طريق الحق والصواب .

### - ففي الشعر دأب الإمام الباجي في طلب العلم منذ ريعان شبابه وأصبحت

له مكانة علمية مرموقة وخاصة في الجانب الأدبي كالشعر فكان نظمه موزونا يعبر عن ذاته النفسية ورؤيته السياسية والعلمية في مجالات الحياة وأحوالها ووقائع أحداثها . (الياضي، 1997، 83 - خاقان، 600) فأشارت المصادر أن ابنه أبا القاسم أحمد ت 493هـ، خلفه بعد وفاته وجلس للناس، وكان بارعا في علم الأصول وهو من أهل الدين والفضل، قد روى عنه معظم علمه وجمع أشعاره (عياض، 351، ابن بشكوال، 122، ابن بسام، 101، ابن خلكان، 408).

والمطلع على أشعاره يلاحظ أنها تتضمن عدة مواضيع ممزوجة بأساليب أدبية كالنداء والشروط تهدف لأغراض محددة كالزهد في الدنيا والرتاء والمدح و الشكر والوصف.

### ومن شعره في الزهد:

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً      بأن جميعَ حياتي كساعه  
فلمَ لنا أكونُ ضنيناً بها      وأجعلها في صلاح و طاعة ؟ (ابن بسام، 600)  
وله فيه أيضا:

تبلغُ إلى الدنيا بأيسرِ زاد      فإنك عنها راحلٌ لمعادٍ  
وغُض عن الدنيا وزخرفِ أهلها      جفوتك وأكلها بطولِ سهادٍ  
وجاهد عن اللذاتِ نضسكَ جاهداً      فإن جهاد النفس خير جهادٍ  
فما هذه الدنيا بدارٍ إقامةٍ      فيعتد من أغراضها بعتادٍ

وما هي إلا دارٌ لهوٍ وفِتنةٍ وان قصارى أهلها لنفاذ (ابن بسام، 603)  
**وله في الرثاء:** نظم الإمام أبو الوليد عدة قصائد ومقتطفات شعرية بليغة في  
 هذا الجانب، ولعل أبرزها التي نظمها في رثاء أبنائه عندما كان بالمشرق يعبر  
 من خلالها عن امتعاضه وغصّة ح  
 زنه الشديد بخياله الواسع وتأسيه على وفاتهما بكل أشجان وجدانه .  
**ولعل أبرزها تلك التي رثا فيها ابنه وقد ماتا مغتربين معبرا عن مواساته  
 لوفاتهما قائلاً:**

رعى الله (قبرين) استكنّا ببلدٍ هما أسكنّاها في السواد من القلب  
 لئن غيباً عن ناظري وتبوءا فؤادي لقد زاد التباعد في القرب  
 يقر لعيني أن أزور (رباهما) وألصق مكنون الترائب بالترب  
 وأبكي و ابكي ساكنيها لعلمي سأنجد من صحبٍ وأسعد من سحب  
 (عياض، 551)

**وله يرثي ابنه أبا الحسن محمد الذي توفى في حياة أبيه بسر قوسطة سنة  
 472هـ،** وكان نبيلاً ذكياً فرثاه والده بمراثي شجية، معبراً عن حزنه لفقدانه  
 بعد أن عاجلته المنية قبله فقال فيه:

أمحمد إن كنت بعدك صابراً صبرُ السليم لما به لا يسلمُ  
 ورزئتُ قبلك بالنبي محمدٍ و لزرؤه أدهى لدي وأعظمُ  
 فلقد علمت بأنني بك لاحقٌ من بعدي ضني إنّي متقدمُ (ابن خاقان، 602)  
**وفي المديح:**

تضمنت أشعاره مديحا للملوك والأمراء وشيوخه سواء بالأندلس التي مدح  
 بها المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية، أو بالمشرق التي مدح بها أمير حلب ونفس  
 الغرض لشيخه السمناني.

**ففي العتضد بالله بن عباد،** انشد أبيات معبراً عن أعماله والأشعار التي وردت  
 تمدح شخصه ومنها:

عبادُ استعبد البرايا بأنعم فاقت النعائمُ

مديحه ضمن كل قلبٍ حتى تغنت به الحمائم (ياقوت، 1389)

وله يمدح شيخه السمناني بعد دخوله بغداد والحرمان مشتمل عليه من كل الجوانب، فصانه من قسوة الحياة التي وهنت شخصه واشتمل على حفظ كرمه و الاجاده عليه. (ابن بسام، 98)

يا بعد صبرك اثموا أم انجدوا هيهات منك تصبر وتجلد

يا بى سلوك بارق متالق وشميم عرف عرارة ومغرد

في كل أفق لي علاق خولة تهدي الهوى ويكل أرض تهمد .

ما طال عهدى بالديار وإنما أنسى معاهدها أسى وتبلد

ولقد مررت على المعاهد بعدما لبس البداوة رسمها المتابد . (ابن بسام، 100)

وله يمدح معز الدولة أبا علوان ابن أسد الدولة وهو شمال بن صالح بن إدريس الكلابي المرדاسي صاحب حلب ت 454هـ (ابن الاثير، 1987، 359) حول اشتماله الملك وكسب مجد الذكر لسلطانه . (ابن بسام، 102)

من مديحه له

محل الهوى من سر حُبك أهل وصرف النوى عن شمل شوقي غافل

ولله طيف لا يلم كأنما له من سهادي في الزيارة عاذل

غدا نافرأ لا استطيع اقتناصه ولو أن لي يوم الحبيب حبال

تببت جفوني صاديات من الكرى ولكنها من ماء دمعي نواهل

لئن أمطرت روض الخدود سحابها لقد صديت من قلوب مراجل

(ابن خاقان، 602)

وله في قيام الليل

قد افلح القانت في جُح الدجى يتلوا الكتاب العربي النيرا

فقائمًا وراكعًا وساجدًا ومبتهلًا مستعبرًا مستغفرًا

له حنين وشهيق و بكا يبيل من ادمعة ترب الثرى

وأنا لسفر نبتغي نيل المدى فصي السرى بغيثنا لا في الكرى

من ينصب الليل ينل راحته عند الصباح يحمّد القوم السرى

(ابن بسام، 104)

### وله في مكارم الأخلاق

مضى زَمَنُ المكارمِ والكرامِ      سَقَاهُ اللهُ من صوبِ الغمامِ  
وكان البِرُّ فعلاً دونَ قولٍ      فَصَارَ البِرُّ نطقاً بالكلامِ (المقري، 85)

### وله شعر في وصف القلم

واسمُرُ ينطق في مشيه      ويسكتُ مهما أمر القدمُ  
على ساحةٍ ليلها مشرقُ      مُنيرٌ وأبيضها مد لهمُ  
وشبهتها ببياض المشيب      يُخالطُ نُورَ سَوَادِ الإلَمِّ (ابن بسام، 98)

### وله في معنى السفر:

إذا كُنْتُ ربي في طريقي صاحباً      وتَخَلَّفني في الأهلِ مادمتُ غائباً  
فسَهْلُ سبيلي وأزُو عني شرها      وَشَرَّ الَّذي ألقاه في الأهلِ أيّاً

### وله في معنى الحمد والشكر لله على حسن صفات خلقه :

الحمدُ لله ذي آلاءٍ والنعمة      ومُبدِعِ السَّمْعِ والأبصارِ والكلمِ  
من يَحْمُدُ اللهُ يأتيه المزيدُ ومن      يكفر فكم نعمِ آلتِ إلى نَقَمِ (ابن بسام، 104)

### - نثره -

كما أسهم الباجي بتأليف قطع نثرية على شكل مواعظ ونصائح ورسائل أدبية تحمل عدة أساليب أدبية، إنشائية وإخبارية، كالخطاب والنداء، والإستفهام والشرط، والنهي والتعجب لعل أبرزها:

- النصيحة الولدية" (ابن خير، 2009، 344) الذي يحمل صيغ أدبية من

النثر ذات طابع نحوي وصرفي، يقدم فيها الباجي مجموعة من النصائح والإرشادات لولديه والمتعلقة بالأمر الدنيوية والأخروية، بعد بلوغهما سن الرشد يعظهم ويحثهم على التمسك بشريعة نبيه الكريم وقف كتاب الله وسنته، والعمل بأركان إيمانه وإسلامه، ووجوه العمل والتصديق بها، وداعيا إياهم إلى طاعة الله ونبيه والكريم وصحابته وتوقير العلم والعلماء ومجالسهم، بادئا مقدمته بأسلوب النداء قائلا:

" يأبني هداكما الله وأرشدكما و وفقكما وعصمكما، وتفضل عليكما بخير الدنيا والآخرة ووقاكما محذورهما برحمته، إنكما بما بلغتما الحد الذي قرب فيه تعين الفروض عليكما، وتوجه التكليف إليكما، وتحققت أنكما قد بلغتما حد من بفهم الوعظ، ويتبن الرشد، ويصلح للتعليم والعلم، لزمني أن أقدم إليكما وصيتي، واظهر إليكما نصيحتي، ومخافة أن تختمرنى منية ولم ابلغ مباشرة تعليمكما وتدريبكما وإرشادكما وتفهمكما، فإني أنسأ الله تعالى في الأجل، فسيكثر النصح والتعليم والإرشاد، والتفهم، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت عليه فليتوكل المتوكلون ". (الباجي، 2009)

وقوله في النهي: " وإياكما وقراءة شيء من المنطق وكلام الفلاسفة، فإن ذلك مبني على الكفر والإلحاد ، والبعد عن الشريعة والإبعاد"  
"وأحذركما من قراءتها ما لم تقرأ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فساده وضعف شبهه وقلة تحقيقه، مخافة أن يسبق إلى قلب أحدكما ما لا يكون عنده من العلم ما يقوي به على رده". (الباجي، 18)

- سنن الصالحين وسنن العابدين، وهو مؤلف لا يختلف عن كتاب النصيحة في أغراضه استهله بالحمد والشكر لله ولنبيه الكريم بعبارة بليغة من اللغة مع انسجام في الأسلوب ممزوج بتلقين صفات الأخلاق و سبل الدعاء و الوعظ لأبنائه، كونها أساس الآداب النفسية المستمدة من أخلاق السلف من العلماء ووفق دلائل من النصوص الشرعية، وأثار السنة.

فجده في مقدمته قائلا: " الحمد لله الذي يسر ما خلق لما له خلق، وأعز طاعته لعبادته، وأسعدهم بولايته، وحبب إليهم الإيمان".

وقوله أيضا: " وبعد يا بني، وفقكما الله ، فإني لما رأيت الوعظ من أدوية القلوب، وآداب النفوس وتقدم.....رأيت أن أجمع لكما كتابا من هذا النوع أسلمه بعون الله من كثير مما يقع فيه من ألف في هذا الباب من الانحراف عن مذاهب أهل العلم، والغلو الخارج عن سبيل أهل الحق، يكون فيه تنبيه على معان

لا توجد في كتب الفقهاء، وتأديب بأخلاق من سلف من العلماء" (الباجي، 2003، 39).

كما كان للباجي حظ وافر من البلاغة والبيان فله عدة رسائل نثرية في شكل قالب جدلي عن طريق مناظرة عن بعد منها:

- رسالة القاضي أبي الوليد الباجي إلى راهب فرنسا" (الباجي، 1986، 57)، وهي من أبلغ النصوص النثرية في شكل رسائل متكررة بين أبي الوليد وراهب فرنسا، هذا الأخير الذي كان يدعو في مراسلاته أمير سرقوسة إلى اعتناق النصرانية، فكان أبو الوليد ينوب عن المقتدر ابن هود في قراءة تلك الرسائل والرد عليها بقطع نثرية بالغة متضمنة لأساليب لغوية عديدة كالامتناع والجزم والنفي والشرط وجوابه، إضافة إلى النداء و الإستفهام والتعجب من دعواه التي أرسلها دون تأمل وتحقيق الحاملة للتناقض، داحضا إياها بالحجة والبراهين معتمدا على ما أوجبه العقيدة الإسلامية، لقطع الطريق أمام فحوى رسالته .

وخير دليل على ذلك قول الباجي: تصفحت -أيها الراهب- الكتاب الوارد من قبلك، وما مئتَ به من مودتك، وأظهرته من نصيحتك، وأبديته من طويتك".

قول أيضا .... وقد كان ورد علينا- قبل هذا- كتابك واقترن به من دعوى حاملة المحال، وقوله: ولما تكررت علينا رسائلك ووسائلك، تعينت علينا مفاوضتك فيما رضينا من مسألتك، ومعارضتك فيما اخترناه من منهجك في النصح الذي يجري إليه أهل الفضل، وأمرنا الله به على السنة الرسل، وكفنا عن معارضتك على ما استقبحناه من خطابك وسخطناه من كتابك، ومن سب الرسل الكرام والأنبياء -عليهم السلام! . (الباجي، 1999، 63، 65)

وقوله: "أليس الإله هو الخالق لإبليس والقادر على هلاكه، متى شاء والمالك للأرض والسموات، وما بينهما دون شريك ولا ند . (الباجي، 1999، 88)

وقوله وانك - أيها الراهب الذي نحرص على تخليصك من الضلالة. إن سمعت نصحننا لك، وأطعتنا فيما به أمرناك، ووردت الآخرة في جملتنا من أتباع محمد- عليه السلام- النبي المكرم، فتسعد بشفاعته وتشرب من حوضه، وتسكن الجنة معه . (الباجي، 1999، 97) ورجا الإمام الباجي من الراهب في ختام رسالته نصحه وسمع موعظته، إخراجة من الجهل إلى العلم ، ومن الشك إلى تيقن الحق، وأنه سيعلمه طرق الاستدلال وتميز البراهين ما يعلم أسرار الحق ومعاني الألفاظ. (الباجي، 1999، 99)

#### - رسالة تحقيق المذهب في أن النبي كتب:

وهي الأخرى رسالة فقهية يغلب عليها الطابع النثري من تأليف الإمام الباجي يحقق فيها مذهبه في تجويز كتابة النبي صلى الله عليه وسلم على وجه المعجزة وبيان حقيقتها على أوجه الدليل والتأويل ويوضح ما أملمته بعض أغراض اللغة ومفاهيمها، يراجع بها علماء عصره ممن عارضوه وشنعوا عليه واتهموه بالكفر والزندقة لقوله بظاهر لفظ حديث البراء(البخاري، 2002، 659 - ابن حجر العسقلاني، 2005، 356) فقال الباجي: "أما بعد يا أخی وفقك الله فإنك ذكرت لي أنه جرى في مجلسي من تفسير حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الكتاب الذي قاضى عليه قريشا يوم الحديبية أن بعض الناس قد ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب في ذلك اليوم ومنع من ذلك بعضهم".

و قال: "وسألتني أن اكتب لك في ذلك ما يعول عليه واسبط القول فيه لأكثر مما جرى في المجلس المذكور و بينت الأقوال إلى القائلين بها و أبين وجوها ووجه بطلان قول من أعظم إنكارها وأنبه على الصحيح منها". (الباجي، 1983، 170)

وقوله: "وأما ما وصفنا المعجزة بأنه معجزة، فإن المراد به في اللغة ما يتعذر على قدرة الإنسان نيله، يقال طلب فلان فلانا فأعجزه إذا تعذر عليه

إدراكه، وهذا أمر أعجز الأولين والآخرين بمعنى تعذر على قدرهم ولم تنته إليه طاقاتهم " (الباجي، 1983، 173) .

### ثالثاً: أسهامه في النحو والصرف:

كما أسهم التكوين العلمي للإمام الباجي في ميداني اللغة والآداب من رسوخه المحكم في مجال اللغة العربية، ويتجلى ذلك بشكل واضح في خوضه العديد من المناظرات العلمية المتعلقة بالمسائل الفقهية، والتي كان له جزء منها ونصيب أوفر في نهج طرق الاستدلال لها على وجوه النحو في اللغة العربية، خاصة تلك التي جرت مع شيخه العكبري في بغداد، حول إحدى المسائل الفقهية، وهي نفسها جرت له مع فرق الخوارج بحلب فتحدث الباجي عن كيفية استدلاله عليها من جانب اللغة العربية و تصاريضها، نظرا لتلقيه التكوين العلمي الأدبي واللغوي نحويًا وصرفيًا شاملاً في هذا المجال، وهو الأمر الذي فسح له المجال في معالجة بعض المسائل الفقهية بالتعرض لتصريف اللغة وصياغتها من جوانب نحوية. (ابن الازرق، 550، 551)

وما يؤيد تمكن الإمام الباجي في اللغة والنحو هو ما ذكره بخصوص بيان الحروف التي تدور بين المتناظرين في مؤلفاته كأحكام الفصول في أحكام الأصول والإشارة، مشيراً إلى معانيها التي يحتاج إليها الفقيه.

إضافة إلى تحديد أغراضها ومواضع التي تكون فيها اسماً في الجملة والتي تكون فيها حرفاً، مدعماً شروحاته في بعضها بأبيات شعرية صادرة عن شعراء ممن سبقوه أو عاصروه، وحتى بما أورده النحويين كابن جني والرماني. (الباجي، 2003، 167 - الباجي، 1986، 178 - الخطيب، 2001، 462)

ونحاول ضرب مثال عن ذكر الإمام أبو الوليد في بعض أقوالهم في ذلك أن " ما " لها عشرة مواضع، ذكرها الرماني خمسة منها: تكون فيها إسماً وخمسة منها تكون حرفاً، فأما الخمسة التي تكون فيها إسماً فأحدها تكون موصولة نحو قولك: ما أَكَلْتُ الخبزَ والثاني أن تكون موصوفة نكرة على نحو قولهم مررتُ بما خَيْرُ مِنْكَ، وبما مُعْجَبٌ لكَ، كما تكون للتعجب نحو قولك: ما أَحْسَنَ

زيداً، وتكون للاستفهام نحو قولك : ما خبرك وما شانك ؟ وتكون للجزاء مثل: ما فعل أفعال مثله، كما لها مواضع ، فأحدها للنفي مثل: ما رأيت زيداً ، وتكون كافة مثل: إنما زيدٌ منطلقٌ، وتكون مسلطة مثل: حيث ما تكن أكن، وتكون زائدة مثل قوله تعالى: " فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ "سورة ال عمران الآية 185، وتكون مغيرة نحو قوله تعالى: " لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَأِكَةِ "سورة الحجر الآية 07، (السبكي، 2003، 39 - الباجي، 1986، 179) قوله، أو ولها سبعة مواضع تكون منها بمعنى إلى وأن كقول الشاعر

فقلت له : لَأَتَبَكَّ عَيْنَكَ إِنَّمَا نُحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتُ فَتُعَذَّرَا

(الباجي، 1986، 184)

وعلى غرار ما سيق نجد الإمام الباجي على دراية بألفاظ اللغة ووظائفها ومعانيها ووفق لغات العجم ونستشف ذلك من بعض المسائل في تواليفه التي يرد من خلالها على أهل الأدب أنفسهم، في إيرادهم أن القرآن تضمن ألفاظا غير معروفة البناء والاشتقاق و ليست في اللغة العربية كلفظة مشكاة بلغة الحبش وإستبرق بلغة الفرس وهذا ما أخرج القرآن عن كونه عربيا وغير ذلك، فرد قولهم محتجا بالنص وقرائن اللغة لقوله تعالى: " وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا " سورة الشورى الآية 07، ومن اللغة قوله أن تلك الألفاظ يصح أن تكون منفردة ببنائها باعتبار أن العديد من الألفاظ لم يأتي على بنائها غيرها وأجمعوا أنها عربية، كذلك من أهل اللغة من ينكر الإشتقاق جملة فلا يصح احتجاجكم، إضافة إلى أن اللفظة الفارسية "استبره" بالهاء لا بالقاف فلا اسلم، كما أنه يجوز أن يكون وفاقا بين العرب والعجم في العديد من اللغات كلفظة إستبرق و سخت و مرمر، فثبت ما قلناه. (الباجي، 1986، 302)

و نجده في إحدى مواضع فصول كتابه يرد على من اثبتوا وأجازوا إثبات اللغات من جهة القياس مستدلين على إجراء العرب مسميات عدمت وانقطعت، فرد مبطلا حجتهم بأنه غير صحيح وأنه غير مقيس، لأن التسميات مخصوصة

في سائر الأعصار والبلدان ولا تخص زمنا ولا وطننا واستدل أن خطاب النبي صلى الله عليه وسلم لأمة عصره، يجري على أهل عصرنا على معنى النص لا القياس. واحتجوا أيضا بإجراء الإسم على من وجد به المعنى الذي لأجله كانت التسمية عند العرب ويكون عربيا أولى، فرد عليهم أن لو صح القياس في اللغة لوجب تسمية الرجل الشجاع أسداً لموضع الجرأة ومعنى التسمية فيه.

فاحتجوا أن القياس جائز شرعا في إجازته في اللغة أولى، فرد عليهم بأن القياس جاز في الشريعة التي أطلقت وجوبه ليثبت شرعها، أن العرب لم تطلق القياس في اللغة ولو أطلقت لم يصح لأن اللغة العربية عربية لاختصاصها بالعرب واستعمالها في مواضعها، فما استعمل في غير ما استعملته فليس بعربي وإن كان مقبولا عليه، لأنه استعمل على غير ما استعملته العرب. (الباجي، 1986، 304، 307)

ولعل تقيد الإمام الباجي بمجريات استدلالاته واحتجاجاته في مثل هذه المسائل على النحو الأدبي له ما يبرره من ارتباطه الوثيق بالأدب الأخلاقية المستمدة من عمق الكتاب والسنة النبوية التي أثرت نتاجه الفكري الأدبي، ويتجلى ذلك التقيد والالتزام بشكل جلي من خلال مجريات حديثه مع المؤتمن بن هود كما اشرنا، وذكر أنه كان أبو الوليد يوما في مجلس أحمد بن هود ينتظر إذنه فجالسه ابنه المؤتمن وجاذبه أطراف الحديث فقال له: هل قرأت أدب النفس لأفلاطون؟ فقال له الباجي: إنما قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، ففسر أبو بكر بن العربي أن الباجي عنى بأدب النفس لمحمد، ما تضمنته الشريعة من قرآن وسنة، في هداية السنة وإيضاحها. (ابوبكر بن العربي، 2003، 108)

و مما يشهد لأبو الوليد الباجي من إسهام علمي في مختلف جوانب الحياة الفكرية الأدبية، أنه بعد وروده الأندلس خاض العديد من المناظرات العلمية التي لها صلة وثيقة بمجالات اللغة، كتلك التي حدثت له بمرسية نحاول التطرق إلى مجرياتها باختصار.

### - المناظرة العلمية لأبوالوليد الباجي مع أبي حفص الهوزني :

أورد القاضي عياض أن لأبي الوليد مناظرات مع أبي حفص الهوزني في مرسية في كنف بني طاهر ورؤساءها (عياض، 364) ولاشك أن لبعضها ارتباط وثيق باللغة، وانفرد ابن الأزرق بذكر المسألة التي جرى فيها موضوع المناظرة بينهما اعتماد على ما حكاها الباجي في كتابه فرق الفقهاء حول زعم بعض الناس أن الدعاء ب"يا الله" لا يجوز أن سبب المنع هو الامتناع بين "يا" و"الألف" و"اللام" .

فأورد الباجي في كتابه فرق الفقهاء حول هذه المسألة ونص ما ذكر في ذلك وبه يتضح ما وقع بين العالمين من خلال معالجة القضية، وفق أسس فكرية وجدلية ذات مرجعية سنوية مالكية قائمة على الدليل وإثباته بالحجة والبرهان مع الإستناد إلى أقوال علماء النحو في الإستدلال على ذلك.

فقال أبو الوليد الباجي في هذا: "وقد كنت يوماً في مجلسي" بمرسية " فدخل علي شيخ كان يحضر مجلسي على وجه التبرك بحضور مواضع العلم، و مكاترة (أهلها)، يسمى جعفر بن البيان، وكان رجلاً صالحاً عفيفاً، فقال لي: يحل لأحد أن يقول: يا لله، اغفر لي؟ (ابن الأزرق، 567)

فأجاز أبو الوليد ذلك ورفضه الهوزني واطهر التعجب من خطئه في هذه المسألة، وهذا اللفظ مما تمنعه الشريعة كون مالك منع ذلك في المستخرجة الدعاء بيا لله وتوقف في الدعاء بيا رحمان، أما منع اللغة لذلك منع أهل اللغة إدخال حرف النداء على اسم فيه الألف واللام وزاد على هذا بالتشنيع وألف في المنع من ذلك، بالرغم من استدلال الباجي في فحوى تجويز مالك رحمه الله الدعاء بيا لله " من أمهات كتب الفقه والنحو (ابن الأزرق، 568).

فلما بلغه ذلك زاد عنادا ولجاجا واعتبره كله خطأ وتمويه، وجعل بالشرع واللسان، فلما طلب منه دليله قال اطلبوه تجدوه، ومن قرأ شيئاً من اللغة العربية وجد ما قلته وتورط في اللكنة و العجمة، فقال الباجي لعله أراد كره مالك للدعاء بيا رحمان بيا سيدي، فأراد بما حكاها عن العرب، أنه لا يجوز ذلك

على وجه النداء نافية الألف واللام كقولنا: "يا غلام" و"يا العباس" فكان رد الهوزني التماذي في الغلو واللجاج، وقال لا يجهل ما قلته إلا الأعاجم، ومن لم يقرأ شيئاً من لسان العرب، منع مالك الدعاء بيا الله، واجتمعت العرب والنحاة على أنه لا يجوز ذلك في اللسان العربي. (ابن الأزرق، 569)

ويبدو تفوق أبو الوليد على الهوزني في هذه المناظرة، إلا كونه راسخ في علم اللغة و تصاريحها والنحو وقواعده كرسوخه في الفقه وأصوله (عدة، 2017، 61)، وباعتبار أن اللغة هي الأداة والوسيلة التي تستخدم أثناء المناظرة، فكان الباجي متضلعا في علم النحو والصرف والعناية بها لغرض معالجة المسائل الأصولية المرتبطة بعلم الجدل.

وخير دليل على احتجاجه واستدلّاه على الهوزني بما تضمنته روايات كتب الفقه والنحو، خلال مناظرته للهوزني التي نقض فيها أدلته استنادا على كتب الإمام مالك رحمه الله، إضافة إلى كتب علماء اللغة والنحو، ونص ما في ذلك رواية ابن لبابة (عياض، 80، الحميدي، 1966، 98)، سئل مالك عن الرجل يدعوا في الصلاة فيقول: يا الله، يا رحمان، فقال: يقول: يا رحمان، ثم قال: والله ما بين عندي".

أما رواية أبي محمد بن أبي زيد فنص في روايته في هذه المسألة: سئل مالك عن الرجل يدعوا فالصلاة فيقول: يا الله، يا رحمان، واللهم أبين عندي. واختصر في النوادر: "قيل لمالك: فيقول في دعائه: يا لله، يا رحمان، قال: نعم، والله ما بين عندي، وبما دعت به الأنبياء "

وفي رواية الشيخ أبي الوليد ابن ميقل من طريق ابن لبابة أيضا: "سئل مالك عن الرجل يدعوا في الصلاة فيقول: يا لله، يا رحمان، فقال: يقول يا رحمان ثم قال: اللهم أبين عندي، فقد عبر عن ذلك الباجي أثناء منع واعتراض الهوزني وعناده فقال: "وأخرجت كتب النحو ما عسى أن يوجد في ذلك الوقت بالجهة التي كنت فيها، ككتاب سيويه، وكتاب الاغفال لأبي علي الفسوي،

وكتاب علي بن عيسى الرماني وغيرها ووجد فيها ما يدعم قوله ويدحض قول غيره. (ابن الازرق، 569)

وما يؤكد إهتمام الإمام الباجي بميادين اللغة وفروعها نجده في كتاب إحكام الفصول في إحكام الأصول" يورد فصلا بخصوص بيان الحروف التي تدور بين المتناظرين موضحا أغراضها ومواقعها في اللغة. (الباجي، 1983، 178)

كما ذكر الباجي في مؤلفاته كالحدود، والمنهاج، مفاهيم ومعاني اصطلاحية منها ما هو شامل ومنها ما هو موجز لغرض توضيح بعض المصطلحات الأصولية معبر عنها بأبع عبارات اللغة مبينا أغراضها و حدود ألفاظها الدائرة بين المتناظرين، كونها ألفاظ خاصة تستعمل في فن الجدل والمناظرة وأورد بعض الشروح اللغوية عنها كقوله أن أصل الحد في كلام العرب هو المنع. (الباجي، 1973، 23)

و كثيرا ما كان أبو الوليد يذكر أحد حدود هذه الألفاظ طبقا لتعريفات أحد مشايخه أو أصحابه ويرفض حدها لما يرى فيها من نقص أو خلل معنوي، فيذكر تعريفه ويدلي بها مستندا إلى أدلة قطعية من الكتاب مثل: حد لفظة العقل أن حدها بعض العلوم الضرورية ومحلها القلب، فذكر أبي حنيفة أن العقل محلها الرأس فاستدل الباجي أن محلها القلب استنادا لقوله تعالى: " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا " سورة الحج الآية 46، وقال في الحدود أنه ذهب إليه مالك وهو قول أهل السنة من المتكلمين (الباجي، 1987، 10 - الباجي، 1973، 34)

كما نجده يعتمد على مفاهيم اللغة وضروبها في شرح بعض بيانات أدلة الشرع، كقوله في معقولات الأصل: " فأما فحوى الخطاب ، فهو ما يفهم من نفس الخطاب من قصد المتكلم لعرف اللغة نحو قوله تعالى: " فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفَّ وَكَلَّا تَنْهَرُهُمَا " الإسراء، الآية 23، فهذا يفهم منه من جهة اللغة المنع من الضرب والشتم ويجري مجرى النص من ذلك.

وقوله أما الحصر فله لفظ واحد، وهو "إنما" لغرض تحقيق المنصوص عليه، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الولاء لمن أعتق"، فيفهم القصد من ظاهر اللفظ حصر الولاء في العتق أو نفيه عن غير المعتق. (الباجي، 1989، 75)

#### - أقل الجمع عند الباجي :

ومما يؤكد أيضا الإسهام العلمي الأدبي للباجي في تصاريف اللغة، عرضه لبعض المسائل اللغوية المتعلقة بالصرف، بخصوص أقل الجمع " والتي انقسم العلماء في الاستدلال عليها بعدة آراء الأول يُسوق إلى أن أقل الجمع ثلاثة، ورأي الثاني يُسوق أن أقله اثنان، وحكي الشوكاني رأيا ثالث ذهب إليه كل من ابن فارس في فقه العربية والزمخشري أن أقل الجمع واحد (الباجي، 2003، 61 - الباجي، 1986، 255 - ابن حزم، دت، 2 - ابويعلی، 1993، 650 - ابو قدامة، 1998، 31 - القرافي، 2004، 82، الشوكاني، 2000، 549)

ونظرا لاطلاع الإمام أبي الوليد باللغة واللسان، أورد رأي المجمعين على أقله ثلاثة ونقض أدلتهم في ذلك، ودافع عن الرأي الثاني وأخذ به، وقال في كتابه "الإشارة" أنه مذهب مالك والقاضي أبوبكر بن الباقلاني (الباجي، 2003، 159)، وفي "الأحكام" أنه ذهب إليه الأخير وأبو جعفر السمناني، وحكاه ابن خويز منداد عن مالك محتجا على قوله اعتمادا على الأدلة الشرعية واللغوية مستدلا بإجماع أهل اللغة على صحة إجراء اسم الجمع وكنائياته على الاثنین كإطلاقه على الثلاثة، كقوله تعالى في قصة موسى وهارون: "فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ"، سورة الشعراء الآية 15، ومثال ذلك قوله تعالى: "وَأَوْوَدَ وَسَلِيمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ" سورة الأنبياء الآية 79، واستدل أيضا اتفاق أهل اللغة واللسان في قول المخبر عن نفسه وأخر معه، قلنا وفعلنا وروى النحويين هذا عن الخليل وسيبويه (الباجي، 1986، 255)

وقوله حول ورود ألفاظ الجمع، وعدم دخول جماعة المؤنث ضمنه إلا بأدلة باعتبار أن لكل طائفة لفظ تختص به في مقتضيات اللغة استنادا لقوله

تعالى: "إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" الأَحْزَابِ الآيَةُ 35، و إيراده لدلالة "الواو" عند أهل اللغة حول الجمع السالم والتي تدل على خمسة أشياء منها التذكير، والسلامة، والجمع، ومن يفعل، فلا يجوز أن يقع تحته المؤنث إلا بدليل، كما لا يقع تحته ما لا يعقل إلا بدليل (الباجي، 2003، 61).

#### خاتمة:

- لا شك أن بعض الصفات الأدبية والأخلاقية التي امتاز بها الإمام أبو الوليد الباجي وتلك التي اكتسبها بعضها عن طريق الممارسة اليومية، أثرت في شخصه وأضافت له دفعا في تقوية تحصيله العلمي.

- تميز النشاط العلمي لأبي الوليد الباجي بإثراء الحياة الأدبية من مختلف الجوانب، ففي الشعر نجد له مقتطفات من أبيات وقصائد يعبر من خلالها عن خواجه النفسية والذاتية مضمنا إياها أساليب المدح والشكر والثناء والزهد والسفر.

- كما نجد له مقتطفات من النثر بعضها في شكل قالب جدلي على شكل رسائل تعليمية موجه لطلاب العلم وبعض الفقهاء كرسالة تحقيق المذهب ونصيحته الولدية، وأخرى لأغراض دعوية بأساليب خطابية واستفهامية وتعجبية كرسالة راهب فرنسا وجواب الإمام أبو الوليد الباجي عليها.

- إضافة إلى مدى الإسهامات العلمية لأبو الوليد في ميداني الشعر والنثر، كان له اهتمام قوي بالعلوم النحوية باعتبارها علوم مساعدة للعلماء والفقهاء في مجال المناظرات العلمية، خاصة ما تعلق بها بعلمي الفقه وأصوله، فنجده يستخدمها في نصرة أقوال الإمام مالك رحمه الله وإراد حجه مذهبه وبيان دلالتها شرعا ولغة.

- ملازمة فقيها لبعض علماء النحو بالمشرق والأخذ عنهم، مكنه من الدخول في مناظرات في بعض المسائل فقهية التي تحتاج في طرق ووجوه استدلالها وإثباتاتها على علم النحو، وهذا ما جعل تلك المناظرات تشكل مادة

علمية عمد إلى التصنيف بخصوص مسائلها كل ما تعلق من وجوه اللغة والنحو.

- كما كان له إسهام واضح في ميدان الصرف ونستشف ذلك من خلال بعض مناظراته لعلماء عصره وهو الهوزني الأخير الذي رفض إجازة الدعاء " بيالله" محتجا بان اللغة تمنع الجمع بين الياء والألف واللام، كما تمنعه الشريعة، غير أن الإمام الباجي رد قوله استنادا لأقوال النحويين، وهو ما يدل على تضلعه في علوم النحو الصرف.

- وأورده أيضا في مصنفاته العلمية مسائل متعلقة بالصرف والنحو منها: ما تعلق بأقل الجمع ونلاحظ أنه يدافع عن رؤية القائل بأن أقله اثنان وفق الكتاب والسنة وأقوال مالك، وهذا ما يؤكد على سعة اطلاعه يفتنون الآداب صرفا ونحوا.

- إن اهتمام الإمام الباجي بعلوم اللغة وما تعلق بها من نحو وصرف، راجع لعدم الاستغناء عن هذه العلوم في طرق الاحتجاج حول العديد من المسائل الفقهية والأصولية.

- شكلت أشعاره ورسائله النثرية والتي غالبا ما امتزجت بفتون علم الجدل ومؤلفاته المرتبطة بعلوم اللغة العربية، موروث علمي وثقافي وطريق تعليمي يهتدي إليه العلماء والفتهاء وطلاب العلم في الاستناد عليه سواء في كسب العلم أو تلقيه.

- أصبح الإسهام العلمي الأدبي للإمام أبو الوليد المرجعية العلمية والفكرية للعديد من الفتهاء والعلماء وطلاب العلم في مختلف ميادين اللغة، فشكلت مواضيع مناظراته المرتبطة بمجالات الأدب وفروعه، مادة علمية، نتج عنها الضرورة الحتمية في عدم الاستغناء عن اللغة العربية، كونها تعد الوسيلة في تحقيق سبل العلم وحقائقه

